المرض المتبادل

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

فرغ الطبيب من الكشف على الزائر الخامس فى صباح ذلك اليوم ، ولبث ينتظر المريض السادس ، فدخلت سيدة مقنعة رشيقة القامة وسفرت عن وجه غلب جماله البهي خلف تجعدات الألم كوردة بيضاء سفا عليها عجاج الخمسين ، وقد بادرته هاتفة :

« الغوث أيها الطبيب ! »

فدنا منها وعلى وجهه ابتسامة تبعث الطمأنينة وسألها :—

« ما بك يا سيدتى ... ؟ »

فارتمت على مقعد بين يديه وراحت تروى له قصة ذلك المرض الوبيل الذي فجأها لدى الصباح فاضطرها إلى أن تقصد إليه دون أن تتريث لحين أوبة زوجها من الوزارة . واستمع الطبيب إليها فى دهشة وحيرة وهو يحاول عبثاً أن يوفق بين ما يروى له ، وبين هيئة السيدة المتزوجة التى تنطق بالحشمة والصون

ثم أدى واجبه الدقيق بعناية فتبت لديه ما كان منه فى ريب واكفهر وجهه وهو يقول :—

« سيدتى ... إنه لأمر مؤثر ... لقد أصبت بمرض خبيث ... بمرض سرّى ... »

فانتفضت المرأة فزعة وجحظت عيناها من الهلع والذعر ، وقد ضاع ألمها المبرح فى تيار الخوف الجديد وصاحت به : « مرض سرّي ... ؟ »

« نعم يا سيدتى .. إنى أعنى ما أقول ، ولكن هدئى روعك واملكى زمام نفسك حتى لا تجر هذه الكارثة وراءها كوارث أخرى أشد إيلاما .. أقلت إنك متزوجة .. ؟ »

فأحنت رأسها أن نعم وهي لا تدرى ؛ فاستطرد الطبيب قائلا :—

« وآسفاه ، إن الشهوات تعمى الرجال حتى المتزوجين منهم ! ومهما يكن من شىء فالواجب يحتم عليك أن تجابهى زوجك بالحقيقة ، وقد كان الواجب عليه أن يصونك من عواقب مغامراته . أما وقد وقع المحظور فلا محيد من تنبيهه واصطحابه إلىّ وإلا ذهبت محاولة علاجك سدى ... »

ولكن خرجت من المرأة صرخة مبحوحة وقالت بسرعة وهى تلهث :—

« كلا ... كلا ... لا يمكن أن يكون ذلك ... بادر إلى علاجى ودع أمر زوجى ... »

« ولكن ... »

« بالله لا تجادلنى ... لا ينبغي أن يعلم زوجى من الأمر شيئا . . أدّ واجبك وسينتهى الأمر إلى خير حال إن شاء الله ... »

فاستولت الدهشة على الطبيب وأنعم النظر فى الوجه القلق الذى طغت آلام نفسه على آلام جوارحه ، فطالع فيه الهلع والرعب والاثم ... يا للهول ! أيمكن أن يكون مالم يقع له فى حسبان أبداً ...

أيمكن أن تكون هى الجانية على نفسها ، وربما على زوجها أيضاً ... ؟

وما من شك فى أن الزوج مهدد بخطر عظيم ، إن لم يكن أدركه بالفعل فهو على وشك أن يدركه ، وربما وقع فى متناول الأذى أطفال أبرياء يحبون ... فما العمل ؟ وكيف يتأتى له أن ينقذ هذه النفوس مما يوشك أن يحيق بها من غير أن يهتك ستر هذه المرأة الآثمة الهلعة المتألمة ... ؟

وأحاط به هم التبلبل والحيرة حتى ضاق صدره فحدث نفسه : لماذا أزج بنفسى فى شئون الناس وآلامهم ... ؟ إنى طبيب وما ينبغى لى أن أجوز حدود مهنتى .. وبين يدي امرأة ملوثة فلأشرع فى معالجتها والأمر من بعد ذلك لله ...

واطمأنت نفسه إلى هذا الرأى وهم بمباشرة عمله ، ولكن سرعان ما عاودته أفكاره وقسرته نفسه على مراجعة التفكير فى أمر هذه الأسرة المهدّدة فرأى أن يتخذ طريقاً وسطاً فقال :—

« سيدتى ... ينبغي أن تعلمى أن زوجك فى خطر عظيم ... وأن اختفاءك الآن حيناً لن يمنع الحقيقة من الظهور »

فاختلجت عيناها كالثعبان المترجرج وقالت :—

« كم يقتضى العلاج من الزمن ... ؟ »

« أسبوعين على أقل تقدير ومع أكبر عناية »

« أواه ... إنه الدمار »

« فإصابة زوجك محتومة ... »

« من الميسور أن أدعى توعك المزاج هذه الفترة وأن أباعد ما بينى وبينه حتى أبرأ »

« فإن كان السيف قد سبق العذل ... ؟ »

« أواه يا سيدى ... لا يمكن أن أنتحر مختارة ثم إن زوجى رجل مستقيم يصعب علىّ صكه بالحقيقة المروعة ... فدع الأمور تجرى على مشيئة الله ... فلعل الله حفظه من الأذى ؛ وعسى أن يجعل من بعد عسر يسرا »

وساد سكون عميق مؤلم ... وكأن المرأة تذكرت شيئاً فجأة فنظرت إلى الطبيب جزعة وسألته:

« سيدي ... هل يبقى هذا سراً مكتوما ... ؟ »

« طبعاً ... طبعاً ... اطمئنى إلى كل الاطمئنان ، فصدر الطبيب مقبرة للأسرار لا تنبش أبداً »

فتنهدت من قلب مقروح وقالت :—

« إذا فلنبدأ من الساعة ... وسأوالى الحضور إلى هنا كل صباح إلا يوم الجمعة ... ولا تنتظر ما قدرلى »

ولما انتهى من عمله وهمت بالخروج استمهلها لحظة وجلس إلى مكتبه وسألها :—

« ما اسم السيدة ... ؟ »

فبدا على وجهها الرعب وسألت :—

« ولم هذا ... ؟ » فقال يطمئنها :—

« لا تخافى ولا تحزنى ... إنها تقاليد متبعة ... أنظرى إلى هذا الدفتر تجديه مزدحماً بأسماء المرضى وعناوينهم ... لا تخشى شيئاً واذكرى أنى طبيب لا أكثر ولا أقل ... »

فقالت وهى تتنهد :—

« حرم محمد عباس أفندى مهندس بوزارة الأشغال »

* * *

وفى صباح اليوم الثانى جاءت السيدة وقد قالت للطبيب إن ما يبدو على وجه زوجها من الهدوء والصحة يغمر الأمل المحتضر فى صدرها »

فلما أن كان المساء دخل على الطبيب زائر جديد

فى الثلاثين ، مليح القسمات ، طويل القامة ، تسم وجهه آيات الذكاء والجسارة فحيا الطبيب قائلا :

« مساء الخير »

« مساء الخير »

فتحك ضحكة جهد نفسه أن تكون مرحة طبيعية ولكنها لم تستطع أن تخفى القلق المساور لنفسه وقال : —

« أصبت يا دكتور »

« بمه ... ؟ »

« بالذى يصاب به من يقصدونك »

« وآسفاه ! »

« أتأسف حقاً يا دكتور . . . أيرضيك أن يزدجر الناس عن الهوى وأن تخسر جمهور المترددين عليك ... ؟ »

« لا أظنك قد جئت إلى هنا لتتفلسف . . . اتبعني إلى هذه الحجرة . . . ولكن انتظر لحظة ، أرجو أن تملى علىّ الاسم الكريم »

محمد عباس ... أنا جارك يادكتور ... وإن شئت أن تعرف صناعتى فأنا مهندس بوزارة الأشغال

يا للمفاجأة ! كادت تفلت من بين شفتيه آهة دهشة وانزعاج ، وهمّ أن يرفع رأسه عن الدفتر بحالة عصبية تنم عما يضطرب فى صدره ، ولكنه ذكر تحرج الموقف واشتماله على ما يهدد بالويل ، فصر بأسنانه وأحنى رأسه حتى كاد يلمس الصفحة المبسوطة أمامه ليخفى معالم وجهه عن القاعد تجاهه

إذن هذا هو الزوج المنكوب ، وقد أصيب بما كانت تشفق زوجه عليه وعليها منه ... ترى كيف كان وقع البلاء على نفسيهما ... ؟ كيف اكتشف المرض وكيف تحسس مصدره ... ؟ وماذا جرّ ذلك على حياتهما الزوجية ... ؟ وأين يا ترى المرأة الآن ... ؟ وكيف قرعتها الفضيحة وكيف تتجرع عواقبها ... ؟ ليته يعرف كل شىء ...

أما الآن فما عليه إلا أن يؤدى واجبه . وخطا بالفعل نحو الحجرة الداخلية ولكنه سمع المهندس يقول له بلهجة حزينة : —

« إني أخشى يادكتور أن تعقب هذا المرض مأساة أليمة »

فسأله وهو مايزال شارد اللب : —

« ولمه ؟ »

« لأنى زوج ... ورب أسرة »

فقطّب الطبيب جبينه وبدت عليه آيات الدهشة وفهم الرجل دهشته على غير حقيقتها فقال : —

« هكذا ترى أنه ليس العزاب فقط هم الذين يأثمون ... »

« أتعنى أن زوجك مهدّدة ... ؟ »

« طبيعى يادكتور ... إن موقفى غاية فى الحرج ... والذى يضاعف لى الآلام أنها سيدة طيبة لاتستحق أن تجزى هذا الجزاء السيء . . . فما العمل . . . ؟ »

يا عجبا ! . لقد وضح وبرح الخفاء كلا الزوجين آثم ، وكل منهما ينحى باللائمة على نفسه ، وكاد يستسلم لتيار أفكاره لولا أن سمع الرجل يلح عليه فى السؤال ويكرر قائلاً : —

« ما العمل ياسيدى الطبيب ... »

فقال له : —

« بالحكمة تستطيع أن تصرف الأمور المعقدة إلى خير العواقب ، فحاول أن تصحبها إلىّ من غير أن تثير شكوكها »

فبدت على وجه الرجل الحيرة وقال وهو ذاهل عن نفسه : —

« أحاول »

وحدّث الطبيب نفسه بعد أن غاب المهندس عن ناظريه : ان الله يريد الخير بهذه المرأة . . . وكأن الأمور تسير وفق مشيئتها ، فسيأتى بها إلىّ وأكشف عليها وأعلنه باصابتها فيوقن فى نفسه أنها ضحيته دون سواه ، ويبرآن علي يدىّ ويعود الرجل بزوجه رافعاً يديه حمداً لله وطلباً لغفرانه وهو يجهل أن زوجه فرطت فى حقه أضعاف ما فرط فى حقها . . . فيا لرحمة الله . . .

ولكن أليس من الظلم أن يغشى الله بستره خبيثة هذه المرأة الآثمة ... ؟

فيالحكمة الله ...

* * *

وحان موعد مجيء المرأة ولم تحضر فترجح لدى الطبيب مجيئها مع زوجها عند المساء ، ولكن المهندس أتى وحده وكان بادي التغير منكفئ الوجه ، مصفرّ اللون ، منطفىء البصر كأنه تقدم فى الكبر أعواماً فتوقع الطبيب مفاجأة وبلاء وسأله : —

« ما بك . . ؟ »

فهز رأسه بحزن وقال : —

« ماذا تحدّس . . ؟ »

« لعلك راودتها على المجيء فأبت وعصت ... »

« كان يهون ... »

« آه إذا قد انفضح أمرك ولم تتقن تمثيل دورك ... ونلت جزاءك على يديها ... »

فسها الرجل لحظة ثم قال بصوت تقطعه حشرجة اليأس : —

« يا بؤس هذه الدنيا ... »

فهز الطبيب كتفيه استهانة وقال : —

« كثيراً ما أسمع هجاء مريراً يصب على رأس الدنيا ولكنى أعتقد أن الانسان هو الخالق الأول لهذه الآلام التى يتملص من تبعتها ويلقيها على عاتق الدنيا . . . »

« كما تشاء . . . اعلم ياسيدى الطبيب أنى فى الفترة القصيرة التي تغيبتها عنك أحدثت فى حياتى حدثاً هائلا ، فقد فصل الطلاق بينى وبين زوجى وحرمنى نور أطفالى حينا سأحاله دهراً مديداً . . .

يالهول ... ترى ما الذى حدث ... ؟ وكيف حدث ... ؟ فان قلبه يهمس له بفحواه ولكنه لايدرى تفاصيله ولا يستطيع أن يرجم بما قلب منطق الحوادث وجعل عاليها سافلها ...

واستولت عليه الدهشة وباتت عيناه تلحان بالسؤال بأفصح مما يبين اللسان .. فقال المهندس: —

« إليك قصتى بكل إيجاز : غادرتك ليلة الأمس وقد صدقت نيتى على دعوة زوجى إلى زيارتك كى يطمئن قلبي ، ولكني كنت مضطرباً لا أدرى كيف أبدأ باقتراح الأمر عليها ولا على لى : إن أنا اقترحته بما أبرره به ، فاتخذت مكانى على مقربة منها بادى الهم والفكر ، وللحال لاحظت طواري الهم والاضطراب ترحف عليها زحفاً ، فظننته صدى لاضطرابى وهمى واستجابة لها ، وتلبثت أنتظر أن تبدأ بسؤالى عما يساورنى فلم تفعل ، فضقت بالأمر ضيقاً استفزنى إلى طرح هذا السؤال (ألا تشكين من شيء ... ألا تحسين

بألم ما ... ؟) فحملقت فى وجهى بعينين هالعتين وقالت باضطراب : (كلا ... كلا ... والحمد لله) فتمالكت نفسى وقلت كاذباً (ألاحظ عليك هذه الأيام بعض الاصفرار والتغيير وقد رأيت أن أقترح عليك زيارة طبيب ... فما رأيك ..؟) فردّت بحدّة وبلهجة من يتحمس لدفع خطر مروع : (كلا . . كلا . . أنت واهم ولا لزوم لذلك ألبتة .. إنى أكره الأطباء ويهيج وساوسى الاستماع لنصائحهم)

فطال طلابي وطال رفضها، فألححت عليها فأصرت، فرجوت وتوسلت فعندت وازدادت تشبثاً ؛ وعبثاً حاولت أن أثنيها عن رأيها حتى دهشت لاصرارها وضقت صدراً بها وبنفسى فاهتاجنى المرض والغضب وصحت بها بجنون جعلنى استهتر بكل شئ :(يجب أن تصغى إلىّ ... تعالى معي إلى الطبيب لأنى مصاب وأريد أن أعرف ...) ولم أتم كلامي لأنها انتفضت قائمة متصلبة كالأفعى المتوثبة للافتراس وجحظت عيناها ولم تتمالك نفسها فسرت فى جسدها رعشة شديدة فأدهشنى ذلك وسألت نفسى : مالها . . ؟ ، وهممت أن أعاود الكلام فى ملاطفة مصطنعة ولكنها قطعت علىّ الطريق بهزّة رأس عصبية ما زالت تكررها بعنف جنونى حتى تلبست صورتها هيئة غريبة تنذر بالويل ، فازدادت بى الحيرة وسألتها : (ما الذى يرعبك ؟ لم تخشين الطبيب ؟) فصاحت بصوت ملتو لاتكاد تميز نبراته: (الرحمة ... الرحمة ...) ولكن عاودنى الغضب بحالة لم تأذن للرحمة أن تأوى إلى مستقرها فى قلبي ، فخطوت نحوها أهدر غاضباً ساخطاً فصرخت : (محمد ... الرحمة ... الرحمة ... لقد كشف الله خبيثتى ... أنا الجانية على نفسي وعليك ... أنا أعرف أنك تعلم ذلك ولكنى أستحلفك بالله ألا تمسنى ... طلقنى ولكن لا تمسنى ...) ثم ارتمت بين قدمى مغمى عليها

مامعنى هذا ... لقد تسابقت الظنون إلى قلبي ، وانصبت الشكوك فى عقلى ، واكتظ بها رأسى فانصهر من الحرارة والالتهاب ، وخلت أن شعر رأسى يقف ويتصلب كشعر القنفذ .

إن المرأة لتبهظ الرجل وتثقل كاهله وهى تؤمن بأنها لم تجاوز بعض حقوقها ، أما إذا اعترفت بأنها جانية وسألت الرحمة ووقعت مغشياً عليها فلن يكون ذلك إلا لأمر واحد .

يا عجباً ... فقد ذهبت جانياً آثماً فاذا بى مجنىّ عليه . رحت أكفر عن ذنبى فاذا بي ضحية تعسة ! ما ذا يمكن أن يفعل رجل فى مكانى ..؟

نعم لقد قارفت من الذنب ما قارفت ، وسقطت فى الهاوية التى ابتلعتها ، فهل من المستطاع أن أسدل ستاراً كثيفاً على تاريخ الاثم كله ؟ وأن أتحمل عقاب الله الصارم فى صبر ، وأروض نفسى على العفو والصفاء ... ؟

إنه حل روائي قد يستحسنه غيرى ويعطف عليه نفر غير قليل من الناس . أما أنا فقد انسقت مع طبيعتى وأصخت إلى صوت الغضب فى قلبي ، فهويت بالطلاق على رابطة الزوجية : فخرب بيتى وانتزعت الحضانة مني أطفالاً أعزة كانوا نور حياتى المشرق ؛ فسبحان الله أعدل الحاكمين ... »

نجيب محفوظ